غابرييل غارسيا ماركيز

القصة نفسها مختلفة



سيمنون

الرجل في الشارع



ترجمة: صالح علماني

القصة نفسها مختلفة

القصة نفسها مختلفة

● - القصة نفسها مختلفة
● - غارسيا ماركيز
● - ترجمة صالح علماني
● - الطبعة الأولى 1996

● - دمشق - هاتف : 6318786
6330501

غابرييل غارسيا ماركيز

القصة نفسها مختلفة

سيمنون

الرجل في الشارع

ترجمة صالح علماني

العنوان الأصلي للكتاب:

El mismo cuento distinto

Barcelona, 1994

رقم: ٣٩٣٣٩ تاريخ ١٩٩٧/٢/٢٣

فهرس

غابرييل غارسيا ماركيز

القصة نفسها مختلفة

إحدى القصص القصيرة التي تركت في نفسي انطباعاً عميقاً في شبابي القصير كانت بالنسبة إلي أحجية دون حل إلى ما قبل ستة شهور. لم أكن أعرف عنوانها، ولا من هو الذي كتبها، ولا بأي لغة، ولا في أي مختارات قرأتها. لقد احتجت إلى أربع وأربعين سنة من التقصي لكي أعرف كل ذلك. ولكن هذا لم يكن النهاية: فبعد أن قرأت الآن القصة من جديد، بدت لي مؤثرة جداً مثلما أتذكرها بالفعل، ولكن لأسباب مختلفة.

المرة الأولى التي قرأتها فيها عام ١٩٤٩ كنت قد أوقفت نشاطاتي الأولى كصحفي، ورحت أجوب قرى إقليم غواخيرا الكولومبي، لأبيع هناك موسوعات وكتباً تقنية بالتقسيط. والحقيقة أن ذلك لم يكن سوى ذريعة

للتعرف على المنطقة التي ولدت فيها أمي، وخصوصاً المنطقة التي أرسلها إليها أبواها لكبح غرامياتها مع عامل التلغراف في اراكاتاكا. وقد كان هدفي الأول هو مقارنة المنطقة مع ما كنت قد سمعته عنها منذ طفولتي، واستكشافها بصورة أكبر لحسابي الشخصي، لأني كنت قد بدأت أحدس بأن جذوري ككاتب موجودة هناك.

كان لدي آنذاك فائض من الوقت للمطالعة، وعندما أنهي قراءة كتبي، كنت أقضي ساعات طويلة في النزل الفقيرة على الدروب وأنا أقرأ في نماذج الكتب التي أحملها معي للبيع: تقنيات الجراحة، مؤلفات في القانون، هندسة الجسور، وفي بعض الحالات القصوى كنت أقرأ في مجلدات الانسيكلوبيديا المصورة العشرة. ولكنني كنت أجد على الدوام أصدقاء يعيرونني كتباً أخرى. ولست أذكر من منهم أهدى إلي كتاب مختارات من القصص البوليسية، قرأته وروحي معلقة بخيط في فندق فيكتور كوين في ساحة بلاثا مايور في بايدوبار. وهناك كانت القصة.

خلاصة القصة، كما احتفظت بها في ذاكرتي، هي عن مشبوه يطارده تحريان ليلاً ونهاراً، دون رحمة في

شوارع باريس آملين في أنه عاجلاً أو آجلاً سيجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى البيت، حيث توجد الأدلة الوحيدة لإدانته. ومثلما يحدث لي دائماً مع القصص البوليسية، ومع الحياة نفسها، لم يبق عالقاً في روحي عناد المطارِدين الشرس، وإنما غم المطارَد المتوحد.

انتهت تجارة بيع الكتب بالتقسيط إلى أسوأ حال، وكان عليّ أن أترك لفيكتور كوين إيصالاً موقعاً بأجرة قرابة شهرين من الإقامة في الفندق. وتركت عنده كذلك نماذجي من الكتب التي أبيعها بالتقسيط، لأني لم أعد بحاجة إليها، وتركت معها كتابين أو ثلاثة كتب أدبية كنت قد قرأتها. وكان بينها، وأنا متأكد من ذلك، كتاب القصص البوليسية المختارة.

بعد ست سنوات من ذلك، وكنت قد رسّختُ مكانتي ككاتب تحقيقات صحفية ونشرت روايتي الأولى، وجدت نفسي متوقفاً في باريس. كان خريفاً فاتراً وكانت المدينة هي مدينة روائييها: السماء منخفضة ورمادية، ودخان الكستناء المشوية في مواقد الشوارع، والخنازير الكاملة المزينة بأزهار قرنفل ورقية في واجهات محلات الجزارة، والأوكورديونات الأخيرة للصيف الذي

مضى. في منتصف جسر سان ميشال أجبرتني هبة ريح جليدية على اللجوء إلى أقرب مقهى.

كان مكاناً دافئاً وجيد الإضاءة، مثل مقاهي همنغواي، وفيه أزواج من العشاق تتكرر قبلاتهم الطويلة متكاثرة على مرايا الجدران، وكان هناك متقاعدو حرب يتميزون غيظاً من الأخبار الواردة من الجزائر. جلست قرب الواجهة المطلة على الشارع متظاهراً بقراءة الصحيفة، ولكنني كنت في الواقع أراقب المراكب المقطورة التي تُبحر ببطء في السين وكأنها أكواخ تطفو مع التيار، وفيها حفاضات أطفال حديثي الولادة معلقة لتجف وكلاب هزيلة تنبح من الحافة باتجاه مزاريب نوتردام المزخرفة. وفجأة تملكني إحساس صافٍ بأن هناك من ينظر إلي. بحثت عنه بنظرة من فوق كتفي، وكان هناك بالفعل.

لقد كان رجلاً صلباً بلحية لم تُحلق منذ ثلاثة أيام وملابس متشرد شقي، وكان ينظر إلي دون رحمة من ركن منعزل. أخفضت نظري إلى الجريدة وتظاهرت بالقراءة. وعندما أعدت النظر، كان الرجل ما يزال هناك، ينظر إلي بثبات. لقد كان ذعراً مزيفاً. ولكنني عدت في

تلك اللحظة إلى عيش رعب المطارَد أكثر مما أحسست به في المساء الذي قرأت فيه القصة. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني لم أعد أذكر نهايتها، ونويت البحث عنها لقراءتها بتمعن أكبر.

أذكر أن الكتاب الذي قرأت فيه القصة كان يتألف مما لا يقل عن أربعمئة صفحة، ولكنني كنت قد نسيت من الذي أعارني إياه وإذا ما كان حقاً بين الكتب التي تركتها في فندق فيكتور كويين. ولابد أن الكتاب كان مطبوعاً في بوينس ايرس، مثل معظم قراءاتنا آنذاك، وربما كان من طباعة سنتياغو رويدا، لأن حجمه كان كبيراً وحروفه مريحة للقراءة، مثلما كانت كتب ذلك الناشر. ونظراً إلى جنس الكتاب وإلى بلد وزمن النشر، فلا بد له من أن يكون واحداً من كتب المختارات الكثيرة التي كان يعدها خورخي لويس بورخيس وادولفو بيوي كاساريس. وأما ما استطعت أن أتذكره سوى ذلك فكان شيئاً غامضاً، مثل وجود قصة في الكتاب نفسه لأبولينير بطلها بحار يحمل ببغاء على كتفه. ولم أجد أحداً يقدم لي طرف خيط يدلني على القصة.

الغريب في الأمر أنني كنت قد قرأت عدة كتب

لجورج سيمنون، ولكنني لم أربط على الإطلاق بينه بين القصة التي طالما بحثت عنها. لقد كان قد تحول إلى كاتب أسطوري، ليس بسبب كتبه ، وإنما بسبب الطريقة التي كان يكتبها بها، وبسبب غزارة إنتاجه التي تكاد تتجاوز حدود المعقول. كان يقال أنه ينهي كتاباً كل يوم سبت، وأنه قد ألف عدة كتب في الواجهة الزجاجية لدار النشر لكي يصدق المارة سرعته الحرفية، أو أنه كان يجوب العالم في يخت لكي يزيد إنتاجه إلى كتاب كل يوم. ليس في باريس الحرب الجزائرية، وإنما في مكسيكيو عام ١٩٦٥ المزدهرة، قرأت قصة بالصدفة، ووجدت فيها اسماً جعلني أقفز عن الكرسي: إنه اسم ميغريه. عندئذ، وكما في كشف خارق للطبيعة ومتأخر اثني عشر عاماً، تذكرت أن ذلك هو اسم المفوض الذي كان يطارد المشبوه في قصتي التي لا تُنسى. وهكذا لم يعد لدي مجال للشك في أن المؤلف هو جورج سيمنون.

كانت مجرد خطوة بالطبع، لأن البحث عن قصة قصيرة منفردة لسيمنون دون معرفة عنوانها كان أشبه بالبحث في قاع المحيط. سألت خبراء في أعماله، ومن بينهم ألفارو موتيس الذي اقترح علي يوماً توقيع رسالة

مع ألفي كاتب آخر من العالم للمطالبة برفع أجر المفوض ميغريه. فلم يتذكر أحد حبكة القصة التي كنت أرويها دائما مثل اسطوانة مشروخة. حتى أن ألفارو سيبيدا ساموديو الذي ملَّ من كثرة سماعها ، قال لي يوماً: "اكتبها أنت على أي حال، لأن هذه القصة اللعنة يجب أن توجد".

كنت في بعض الأحيان أراجع قوائم لأعمال سيمنون في المكتبات ومخازن الكتب، على أمل العثور على القصة في اتجاه معاكس: أي الوصول إلى الحدث من خلال العنوان. ولكن دون جدوى. ثلاثة أصدقاء سمعوني أروي القصة كل على حدة، وكانوا واثقين من أنهم يملكونها، وأرسلوا إلي ثلاث قصص مختلفة لسيمنون بدت لهم مشابهة للقصة التي رويتها. والواقع أن أياً منها لم تكن مشابهة لها. وعندئذ سألت نفسي السؤال الرهيب: "وماذا إذا لم تكن القصة لسيمنون؟".

في ربيع إحدى سنوات السبعينات، وبينما كنت أمضي الوقت في أحد مقاهي جنيف بانتظار أن يحين موعد لقاء مع أحدهم، رأيت رجلاً في حوالي السبعين من عمره يجلس إلى طاولة قريبة، وكان يرتدي معطفاً

مطرياً فاتحاً ويضع قبعة لينة، ويعلق مظلة بذراعه. وقد همس لي النادل الذي كان يخدمني بسرٍ لا يستطيع الصبر عليه:

"هذا هو الكاتب سيمنون".

نظرت من فوق الصحيفة، فرأيته يقرأ صحيفته بينما هو يمضغ غليوناً منطفئاً. ما كنت لأستطيع التعرف عليه من خلال الصور، فقد كان له وجه البلجيكي المجهول نفسه الذي فرضه على ميغريه. وكان قد أعلن قبل ذلك بقليل اعتزاله الأدب، ولكن لم يكن يبدو عليه التعب من تقدمه في السن ولا من نجاحه الراسخ الذي حققه قطرة قطرة طوال ما يقرب من ثلاثين سنة. فكرت مطولاً في أنني لم أكن في أي يوم من الأيام بمثل هذا القرب من حل أحجيتي، ولكنني لم أجرؤ على الاقتراب منه، بالرغم من معرفتي بوجود عدد من الأصدقاء المشتركين فيما بيننا. ثم تساءلت بعد ذلك عما إذا كان لديه الوقت والذاكرة ليتذكر واحدة من قصصه التائهة .

في شهر نيسان عام ١٩٨٣ دخلت إلى بيت بعض الأصدقاء، خلال مهرجان الموسيقى في بايدوبار، ووجدت جميع المدعوين يلتفون حول عجوز يرقص مثل

فنان مع ملكة جمال. لم تكن تشوبه شائبة، فكل ما يرتديه من الكتان الأبيض، مع قبعة قش فاخرة جداً، ونظارة دون إطار، وحذاء كاريبي خالص: أبيض مع مقدمة وكعب أسودين. كان ذلك هو فيكتور كوين في أفضل رقصة في الثالثة والتسعين رأيتها في حياتي. بعد انتهاء المقطوعة الموسيقية، دنا مني بتهذبه البطريركي ومزاجه الرائق وقدم لي قصاصة ورقية بحجم بطاقة التعارف قائلاً لي:

"احتفظ لك بهذه الهدية".

وكانت القصاصة هي إيصالاً بتسعمئة بيزو كولومبي لم أدفعها إليه. وقد كانت تلك الواقعة هي حدث الحفلة التي مازال يتحدث عنها إلى زوار بايدوبار. ومع ذلك، وحتى قبل أن أشكر لفيكتور كوين عظمته، سألته عما إذا كان ما يزال لديه بالصدفة بعد تلك السنوات الثلاثين، أحد الكتب التي كنت قد تركتها عنده. وقد كان في مكتبته الصغيرة، إنما المرتبة ثلاثة من تلك الكتب. ولكن أياً منها لم يكن هو الكتاب الذي أبحث عنه.

وقد كان خوليو كورتاثار، وسط عاصفة توراتية

في ماناغوا، هو الذي وضعني على شفير الهاوية. كنا قد تحدثنا يومذاك طوال ساعات عديدة حول قصص المطارَدين، وهو موضوع آخر من موضوعات اختصاصه، وفجأة تذكرت سيمنون. وما حدث كان لا يصدق: فقبل أن أنتهي من رواية موضوع القصة، قال لي كورتاثار بصوته الجهير البديع وراءاته المسحوبة سحباً:

- هذه القصة تسمى L'homme dans la rue، وهي جزء من مجموعة قصصية بعنوان Maigret et les petits cochons sans queue.

بدا لي أنه سيكون من السهل جداً العثور على الكتاب، فلم أطلب منه مزيداً من التفاصيل. وقد كان ذلك خطأً كبيراً، فبعد وقت قصير من ذلك اشتريت من محل تصفيات نسخة متشردة باللغة الإسبانية، ولم تكن القصة التي أبحث عنها موجودة ضمن الكتاب. وبدلاً من أن أصر على الحصول على نسخة موثوقة وبالفرنسية، اعتقدت أن الأمر مجرد خطأ من كورتاثار، الذي كان قد مات قبل ذلك بقليل، وأغلقت ملف القضية. واليوم، حين أصبحت النسخة الأصلية من الكتاب بين يدي، اتضح لي أن المجموعة القصصية مؤلفة من تسع قصص،

بينما لم ينشروا في تلك الطبعة المقرصنة بالإسبانية سوى ست قصص.

كنت قد تخليت عن البحث منذ نحو عشر سنوات، وفي ربيع نوبات الذعر الانتخابية لعام ١٩٩٣، عندما حدثتني بياتريث دي مورا في برشلونة عن مشروعها الفلكي في أنها ستنشر، لأول مرة بالإسبانية، الأعمال الكاملة لسيمنون في مئتين وأربعة عشر مجلداً، ابتداء من تلك السنة وحتى سنوات الألف الثالثة للميلاد. كنت أستمع إليها بحماس كبير دفعها إلى أن تطلب مني كتابة ملاحظة تقديم لتلك الأعمال. إنني أعرف الآن أنها قالت ذلك مازحة وهي واثقة من أنني سأقول لها لا. ولكن جوابي كان جدياً حين قلت لها:

- إنني مستعد لأن أكتب لك المقدمة التي تطلبين إذا أنت عثرت لي على قصة لسيمنون بعنوان: L'homme dans la rue

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكنا قد انتهينا من تناول العشاء في لاباسا، مطعم توني لوبيث في مرتفعات بونانوفا. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي تلقيت نسخة من الكتاب. لقد حُلّت الأحجية

التي بدت بلا نهاية: فالقصة، مثلما قال كورتاثار، كانت واحدة من القصص التسع في مجموعة Maigret et les petits cochons sans queue.

قرأت القصة على الفور، وأنا واقف في المكان نفسه من البيت الذي تلقيتها فيه. وفي الصفحة الثالثة، مثلما هي طريقة سيمنون تماماً، كان ملخص المأساة كلها في جملة طويلة بنَفَسٍ واحد: "وهكذا بدأت مطاردة ستستمر طوال خمسة أيام وخمس ليالٍ، في باريس غير مبالية، من بار لبار، ومن حانة لحانة؛ رجل وحيد من جهة، ومن جهة أخرى ميغريه ومفتشيه الذين كانوا يتناوبون المطاردة ، وقد انتهوا في آخر المطاف إلى استفاد قواهم مثل طريدتهم".

وهكذا حصلت أخيرا على القصة الضائعة. ومع ذلك، فإن لغز تلك السنوات الطويلة كان يحمل بداخله لغزاً آخر أكبر، فالقصة كانت في الحقيقة هي نفسها، ولكنها لم تكن مثلما تذكرتها. أولاً لأنها لم تكن تُروى من وجهة نظر المطارَد كما كنت أعتقد، وإنما من وجهة نظر ميغريه، المطارِد. وهذا أمر يغير من تسلسل السياق. ثانياً، لأن الحبكة البوليسية لم تكن محلولة بالسهولة التي

ترسخت في ذاكرتي، وإنما كانت على غرار صفحات الأدب العظيم: إنها تضحية غرامية، وتأكيد آخر للطريقة التي يمكن بها للحياة أن تبدل جوهر حكاية ما، وأن تبدل فينا نحن بالذات طريقتنا في الحب، ولو من أجل كشف وتصحيح طيش الذاكرة المشفق وحسب. وحتى إذا كان هذا هو السبب فقط، فإن فقدان قصة طوال نصف قرن تقريباً كان أمراً جديراً بالعناء.

كارتاخينا دي اندياس، ١٩٩٣

جورج سيمنون

الرجل في الشارع

كان الرجال الأربعة محشورين في سيارة الأجرة. في باريس الجليدية. وكانت المدينة شاحبة في السابعة والنصف صباحاً، والرياح تذرو غباراً من الثلج قريباً من سطح الأرض.

أنحف الأربعة كان يجلس على المقعد خائراً، تتدلى من فمه سيجارة ملتصقة بشفته السفلى، بينما يداه مقيدتان. أما أرفعهم مكانة، فهو شـخص متين الفـك، يتدثر بمعطـف سميك، ويضع على رأسه قبعة، ويدخن غليوناً وهو يتأمل مرور سور غابات بولونيا أمام عينيه.

اقترح بيتت لويس، وهو الرجل المقيد، بنبرة مرحة:

ـ هل أؤدي لك دور المتشنج؟ مع التلويات، وزبد اللعاب، والشتائم وكل شيء؟

فزمجر ميغريه وهو ينزع له السيجارة من بين

شفتيه ويفتح له الباب، لأنهم كانوا قد وصلوا إلى بورت دي باغاتيل:

ـ لا حاجة بك إلى التذاكي.

كانت دروب غابات بولونيا مقفرة، بيضاء وقاسية مثل المرمر. وكان هناك نحو عشرة أشخاص يتزلجون على الثلج ليقاوموا البـرد إلى جوار ممر للفرسان، وحاول مصور أن يلتقط صورة للجماعة المقتربة. ولكن بيتت لويس رفع ذراعيه، مثلما أوصوه أن يفعل، ليخبئ وجهه.

كان ميغريه، بمزاجه المعكر، يلتفت برأسه مثل دب، مراقباً كل شيء: البنايات الجديدة في بوليفار ريشار ـ والاس التي ما تزال أبوابها الصغيرة مغلقة، وبعض العمال الآتين من بوتياو على دراجاتهم، وحافلة ترام مضاءة، وامرأتين بوابتين بأيديهما البنفسجية من البرد.

سأل:

ـ كل شيء جاهز؟

كان قد سمح للصحفيين في اليوم السابق بأن ينشروا الخبر التالي:

«جــريمة باغاتيل»

"لم تتأخر الشرطة هذه المرة طويلاً في كشف اللثام عن قضية كانت تبدو محاطة بصعوبات لا يمكن تجاوزها. ففي صبيحة يوم الاثنين كما هو معروف، اكتشف أحد حراس غابات بولونيا في أحد الممرات، على بعد مئة متر من بورت دو باغاتيل، وجود جثة رجل تم تحديد هويته في الحال.

"فالقتيل هو إرنست بورمز، طبيب فِيَتْنِيّ معروف جداً، يعيش في نيويلي منذ عدة سنوات. وقد كان بورمز يرتدي بدلة سموكن. ولابد أن أحدهم قد هاجمه ليلة الأحد ـ الاثنين وهو راجع إلى شقته، في بوليفار ريتشار ـ والاس.

"لقد أُطلقت عليه رصاصة مسدس من عيار صغير عن قرب وأصابته في القلب.

"بورمز الذي كان ما يزال شاباً، حسن المظهر، وشديد الأناقة، كان يعيش حياة اجتماعية زخمة.

"بعد أقل من ثمان وأربعين ساعة على وقوع هذه الجريمة، توصلت الشرطة الجنائية إلى اعتقال أحد الأشخاص. وما بين الساعة السابعة والثامنة من صباح الغد، سيجري تمثيل الجريمة في مكان الأحداث".

* * *

فيما بعد، كان الحديث في كواي دوس أورفيفير (مقر الشرطة الجنائية) يدور حول هذه القضية، وكان يقال إنه ربما استخدم ميغريه فيها أكثر أساليبه تقليدية؛ ولكن حين كانوا يذكرون ذلك بحضوره، كان يتصرف برد فعل غريب، مديراً رأسه ومصدراً زمجرة.

فلنذهب إلى هناك! كان كل شخص في مكانه. وكان هناك عدد قليل من النظّارة، مثلما كان مُقدراً بالضبط. فلسبب ما اختار ميغريه تلك الساعة الصباحية المبكرة. أضف إلى ذلك أنه بين العشرة أو الخمسة عشر شخصاً الذين كانوا يقرعون الأرض بأقدامهم، كان بالإمكان التعرف على عدد من مفتشي الشرطة وهم يتخذون أكثر الأوضاع الممكنة براءة، وكان أحدهم، وهو تورينس، ممن يفتنهم التنكر، فقد ارتدى ثياب موزع

حليب، مما جعل رئيسه يهز كتفيه.

عسى ألا يبالغ بيتت لويس في تمثيل الدور! إنه واحد من "زبائنه"، فهو منحرف معروف جداً، اعتقلوه في اليوم السابق بينما كان يمارس مهنته في نشل المحافظ في المترو.

"ستمد لنا يد المساعدة غداً، وسنحاول هذه المرة ألا يكون الإفراج عنك سيئاً..."

وكانوا قد أخرجوه من الحبس.

ـ هيا! ـ زمجر ميغريه ـ عندما سمعتَ صوت الخطوات كنتَ مختبئاً في هذا الركن، أليس كذلك؟

ـ أجل، هكذا بالضبط يا سيدي المفوض. كنتُ جائعاً، هل تفهمني؟ ولم يكن معي سنتيم واحد. وقلت لنفسي عندئذ إن شخصاً يعود إلى بيته ببدلة سموكن، لابد أن تكون محفظته ممتلئة... فقلت له وأنا أقترب منه "محفظتك أو حياتك!". وأُقسم لك أنني لم أكن أقصد إطلاق الرصاص. أظن أن البرد هو الذي جعل إصبعي يضغط على الزناد...

* * *

الساعة الحادية عشرة صباحاً. ميغريه يذرع مكتبه في كواي دوس أوفيفري (مقر الشرطة الجنائية) بخطوات واسعة، ويدخن غليوناً بعد آخر، ولا يتوقف عن الرد على الهاتف.

ـ آلو! أهذا أنت أيها الرئيس؟ أنا لوقا. لقد لحقت بالعجوز الذي بدا مهتماً بإعادة تمثيل الجريمة. لقد أخطأنا الهدف: إنه مهووس يقوم كل صباح بجولة في الغابات.

ـ حسن، فلترجع إذن.

وفي الحادية عشرة والربع.

ـ آلو، هل أنت الرئيس؟ أنا تورينس. لقد لحقت بالشاب الذي أشرت لي إليه بطرف عينك. إنه يشارك في كل المسابقات التي تقام لاختيار تحريين. يعمل بائعاً في دكاكين كامبو أليسيو. هل يمكنني الرجوع؟

ولم يتلق أي مكالمة من جانفييه حتى الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق.

ـ يجب أن أتكلم باختصار أيها الرئيس، ليس لأن العصفور سيطير. إنني أراقبه من خلال المرآة الموضوعة على باب حجرة الهاتف. أنا موجود في بار نين جون

(القزم الأصفر)، في بوليفار روشيشوار... أثناء اجتيازه السين رمى شيئاً إلى النهر. وقد حاول كذلك المراوغة والتهرب مني عشر مرات. هل أنتظرك هنا؟

هكذا بدأت مطاردة ستستمر خمسة أيام وخمس ليالٍ، بين مشاةٍ متعجلين في باريس لامبالية، من بار إلى بار، ومن حانة إلى حانة؛ رجل وحيد من جهة، ومن جهة أخرى ميغريه ومفتشيه الذين كانوا يتناوبون المطاردة، ولكنهم استنفدوا قواهم في نهاية المطاف مثل طريدتهم.

نزل ميغريه من سيارة الأجرة أمام بار النين جون، في ساعة تناول المشهيات، ووجد جانفييه يستند بمرفقيه إلى الكونتوار. لم يكلف نفسه مشقة التظاهر بالبراءة. بل على العكس!

- من هو؟

فأشار له المفتش بذقنه إلى رجل جالس في أحد الأركان، وراء طاولة صغيرة. كان الرجل ينظر إليهما بحدقتيه الفاتحتين اللتين يضفي لونهما الأزرق على هيئته مظهراً أجنبياً. أهو من بلدان الشمال؟ أم سلافي؟ على

الأغلب أنه سلافي. كان يرتدي معطفاً رمادياً، وبدلة جيدة التفصيل، وقبعة لينة.

لابد أنه في حوالى الخامسة والثلاثين. وقد كان شاحباً وذقنه حليقة.

ـ ماذا تريد أن تشرب أيها الرئيس؟ هل أطلب لك بيكون ساخن؟

ـ لابأس، بيكون ساخن. وماذا يشرب هو؟

ـ خمر. لقد شرب خمس كؤوس هذا الصباح. ولست أستغرب تلعثم لساني قليلاً لدى التكلم: فقد اضطررت وأنا ألاحقه إلى دخول كل الحانات. لديه قدرة كبيرة على التحمل، أتعرف ذلك؟ ... ثم ، انتبه إليه، إنه على هذه الحال طوال الصباح. مثل هذا الشخص لا يستسلم بسهولة.

كان قوله صحيحاً. وكان الأمر يبدو غريباً. فلم يكن بالإمكان تسمية ذلك عجرفة ولا تحدياً. فقد كان الرجل ينظر إليهما ببساطة. ولم يكن يُظهر ما يشير إلى أنه قلق. فما يعكسه وجهه كان شيئاً أقرب إلى الكآبة الهادئة، التأملية.

ـ عندما انتبه ونحن في باغاتيل إلى أنك لا ترفع بصرك عنه، انصرف فوراً، ومضيت أنا في أثره. ولم يكن قد مشى مئة متر عندما التفت إلى الوراء. وعندئذ، بدل أن يخرج من الغابة، مثلما كان ينوي على ما يبدو، راح يمشي بخطوات واسعة عبر أول درب جانبي صادفه. ثم التفت إلى الوراء ثانية. تعرّف علي. جلس على مقعد بالرغم من البرد، ووقفت أنا بدوري. وقد أحسست عدة مرات بأنه يريد التكلم معي، ولكنه مضى في النهاية وهو يهز كتفيه.

"وعند بورت دوفين كدت أضيعه، لأنه ركب سيارة أجرة، ولكن الحظ حالفني بالعثور على سيارة أجرة أخرى على الفور تقريباً. نزل في ساحة الأوبرا، ودخل مسرعاً إلى المترو. وكنت أمضي في أثره، وقد بدلنا الخط خمس مرات، إلى أن بدأ يدرك أنه لن يستطيع تضليلي بهذه الطريقة.

"عدنا للصعود إلى سطح الأرض. كنا في ساحة كليشي. ومنذ تلك اللحظة لم نتوقف عن التنقل من بار إلى بار. وكنت أنتظر أن يدخل إلى مكان جيد تكون فيه حجرة هاتف أستطيع مراقبته منها. وعندما رآني أتصل

بالهاتف، كشر تكشيرة سخرية وحزن. وأقسم لكُ إنه كان بعد ذلك ينتظر مجيء حضرتك.

- اتصلْ بـ "البيت". فليستعد لوقا وتورينس للمجيء بسرعة عند أول إشارة. وليأت كذلك مصور من **الأدلة الجنائية**، ولتكن معه كاميرا صغيرة جداً.

- جرسون! - نادى ذلك الشخص المجهول: - كم الحساب؟

- ثلاثة فرنكات ونصف.

فهمس ميغريه قائلاً لجانفييه:

- أراهن أنه بولوني. ثم أضاف: هيا بنا.

لم يبتعدوا كثيراً. ففي ساحة بلانش دخل الرجل إلى مطعم صغير؛ فلحقا به وجلسا إلى طاولة مجاورة لطاولته. كان المطعم إيطالياً، وقد أكلوا فيه معكرونة.

في الساعة الثالثة ذهب لوقا ليناوب محل جانفييه، حين كان هذا الأخير موجوداً مع ميغريه في مشرب للبيرة قبالة محطة الشمال.

سأله ميغريه:

ـ وأين المصور؟

ـ إنه ينتظر في الشارع ليفاجأه وهو خارج.

وبالفعل، ما إن خرج البولوني بعد أن قرأ الصحف، حتى اقترب منه مفتش بسرعة والتقط له صورة عن بعد أقل من متر واحد. رفع الرجل على الفور يده إلى وجهه، ولكن الوقت كان قد فات، وعندئذ وجه نظرة تأنيب إلى ميغريه، مؤكداً بذلك أنه يعرف السبب. فقال المفوض في نفسه:

ـ آه يا صديقي، لديك أسباب جيدة لتبعدنا عن بيتك. ولكنك إذا كنت صبوراً، فأنا صبور مثلك...

عندما بدأ الظلام يخيم كانت ندف الثلج تحوّم في الشوارع، بينما كان الرجل المجهول يواصل المشي واضعاً يديه في جيبيه، بانتظار موعد النوم.

اقترح لوقا على المفوض:

ـ هل تريدني أن أناوب مكانك في الليل أيها الرئيس؟

ـ لا. أفضلُ أن تهتم بأمر الصورة. ابحث أولاً في أرشيف المحفوظات. ثم تقصى بعد ذلك في أوساط

الأجانب. هذا الشخص يعرف باريس. من المؤكد أنه يعيش هنا منذ بعض الوقت. ولابد أن هناك من سيتعرف عليه.

ـ ولماذا لا ننشر صورته في الصحف؟

نظر ميغريه إلى مرؤوسه باستخفاف. هل هذا يعني أن لوقا الذي يعمل معه منذ سنوات مازال لايفهم؟ وهل لدى الشرطة دليل واحد؟ لاشيء! ليس هناك أي دليل! رجل يُقتل ليلاً في غابات بولونيا. لايُعثر على السلاح. ولا على أي أثر. القتيل هو الدكتور بومز الذي يعيش وحده، وخادمته الوحيدة تجهل إلى أين ذهب في اليوم السابق.

ـ افعل ما قلته لك! هيا...

في الساعة الثانية عشرة ليلاً قرر الرجل أخيراً تخطي عتبة فندق. وكان ميغريه يقتفي خطواته. كان فندقاً من الدرجة الثانية، وربما من الدرجة الثالثة.

ـ أريد غرفة.

ـ هل تتفضل بملء هذه الاستمارة؟

يملؤها بتردد بأصابعه المنملة من البرد. ينظر إلى

ميغريه من أعلى إلى أسفل وكأنه يقول له: "أتظنني قلقاً من ملاحقة نظراتك لي! سأكتب ما تمليه عليّ رغبتي".

ويكتب بالفعل أول اسم وكنية يخطران لباله: نيكولاس سلتكوفيتش، مكان الإقامة في كراكوفيا، وقد وصل إلى باريس في اليوم السابق.

كل ذلك مزيف دون ريب. يتصل ميغريه بالشرطة الجنائية. يراجعون ملفات الشقق المفروشة، وسجلات الأجانب، ويتصلون بمراكز الحدود. لا وجود لأي شخص يدعى نيكولاس سلتكوفيتش.

ـ هل تريد حضرتك غرفة أيضاً؟ يسأله صاحب الفندق مكشراً، لأنه ينتبه إلى أنه يقف أمام شرطي.

ـ لا، شكراً، سأقضي الليل على السلم.

هذا أكثر أماناً. يجلس على إحدى الدرجات، أمام باب الغرفة رقم ٠٧ يُفتح هذا الباب نفسه مرتين. يتفحص الرجل الظلمة بنظره، يرى شبح ميغريه، وينتهي به الأمر إلى الاستسلام للنوم. في الصباح تكون ذقنه قد نمت، وأصبح خداه خشنين. لم يستطع استبدال ملابسه. بل إنه لا يملك مشطاً، فشعره مشعث.

في هذه الأثناء يصل لوقا:

- هل أحل محللك أيها الرئيس؟

لكن ميغريه لا يريد التخلي عن مجهوله. رآه وهو يدفع أجرة الغرفة. رأى وجهه يمتقع. وأدرك ما الذي يحدث.

وبالفعل، فبعد قليل، وبينما كان مرفق أحدهما يكاد يلامس مرفق الآخر في أحد البارات وهما يتناولان قهوة بالحليب مع كرواسان، راح الرجل يعدّ ما معه من نقود دون أدنى مواربة. ورقة من فئة المئة فرنك، وقطعتان معدنيتان من فئة العشرين فرنكاً، وواحدة من فئة العشرة فرنكات وبعض الفراطة. وكانت شفتاه تقطبان في تكشيرة انزعاج.

حسن! بمثل هذا المبلغ لن يستطيع الذهاب بعيداً. عندما وصل إلى غابات بولونيا كان قد خرج من بيته للتو، فذقنه كانت حديثة الحلاقة، ولم تكن هناك أي بقعة غبار أو أي تجعيدة في بدلته. هل كان في نيته أن يعود إلى بيته بعد قليل؟ فهو لم يهتم حتى بالنقود التي كان يحملها معه.

وأدرك ميغريه ما هو الشيء الذي رماه إلى السين: إنها وثائق إثبات الشخصية، وربما بطاقات تعريف.

إنه يريد أن يتجنب بكل الوسائل الكشف عن مكان إقامته.

التسكع التقليدي لمن لاسقف لهم يتجدد ثانية، مع توقفات أمام المتاجر، وأمام معروضات الباعة الجوالين، أو في البارات التي يتوجب عليه الدخول إليها بين حين وآخر، حتى ولو كان من أجل الجلوس فقط، لاسيما وأن الجو بارد في الشارع، أو من أجل قراءة الصحف.

مئة وخمسون فرنكاً! لا مجال لأي نوع من المطاعم في الظهيرة. الرجل يقنع ببعض البيض المسلوق يأكله واقفاً عند كونتوار مع زجاجة بيرة، بينما ميغريه يلتهم عدة شطائر.

يتردد الآخر كثيراً وهو يفكر في الدخول إلى إحدى دور السينما. يده تداعب القطع النقدية في جيبه. ولكنه يواصل السير.. يسير ويسير...

صحيح! هناك تفصيل يلفت انتباه ميغريه. فالرجل في مسيره المنهك يتجول على الدوام أحياء بعينها: من ترينيتي إلى ساحة كليشي؛ ومن ساحة كليشي إلى

باريس، مروراً بشارع كولينكور؛ ومن باريس إلى غار دو نورد (محطة الشمال) وإلى شارع لافاييت...

أهو يخشى كذلك أن يتعرف عليه أحد المارة؟ من المؤكد أنه يختار أكثر الأحياء بعداً عن بيته أو فندقه، وعن الأحياء التي اعتاد التردد عليها.

أهو يعيش في مونبارناس مثل كثيرين غيره من الأجانب؟ أم في محيط البانتيون؟

الملابس التي يرتديها تشير إلى أنه متوسط الحال. إنها ملابس مريحة، متواضعة، جيدة الصنع. لابد أنه يعمل في مهنة حرة. ألديه ارتباط! أم تراه يكون متزوجاً!

لم يجد ميغريه بداً من التخلي عن مكانه لتورينس. فمر بسرعة على بيته. كانت مدام ميغريه في حالة من التشوش: فقد جاءت أختها من أورليان، وقد أعدت للمناسبة عشاء خاصاً جداً، وها هوذا زوجها يخرج ثانية بعد أن حلق ذقنه وبدّل ملابسه، قائلاً أنه لا يعرف متى سيعود.

يمضي المفوض مسرعاً باتجاه كواي دوس اورفيفر (مقر الشرطة الجنائية).

ـ ألا يوجد أي خبر لي من لوقا؟

بلى! ثمة خبر من المأمور. لقد عرض الصورة في عدد من الأوساط البولونية والروسية. ليس هناك من يعرفه. وليس هناك أي شيء في الأوساط السياسية كذلك. وفي النهاية، سحب عدة نسخ من الصورة الشهيرة. وفي كل أحياء باريس هناك الآن شرطيون يمضون من باب لباب ومن بوابة إلى أخرى عارضين الصورة على أصحاب الحانات والجراسين.

- آلو! المفوض ميغريه؟ إنني عاملة في سينما أكتواليتيه، في شارع ستراسبورغ... يوجد هنا رجل، يدعى السيد تورينس، طلب مني أن أتصل بك هاتفياً لأقول لك إنه هنا، ولكنه لا يستطيع الخروج من القاعة.

ليس بالرجل الأحمق! لقد اختار أفضل مكان يمكنه قضاء بضع ساعات فيه: هناك تدفئة وأجر الدخول رخيص. ثمن بطاقة الدخول فرنكان اثنان فقط... وله الحق بالبقاء عدة عروض!

* * *

لقد قامت علاقة حميمة مثيرة للفضول بين المطارِد والمطارَد، بين الرجل الذي لا تني ذقنه تنمو وملابسه تتجعد، وميغريه الذي لا يتوقف عن ملاحقته لحظة

واحدة. بل هناك تفصيل مسلٍ. فكلاهما أصيب بالزكام. احمرّ أنفاهما. وكانا يُخرجان المنديل من جيبيهما في الوقت نفسه تقريباً، وفي إحدى المرات لم يستطع الرجل إخفاء ابتسامة غامضة وهو يرى ميغريه يفلت سلسلة متتالية من العطاس.

فندق قذر في بوليفار دو شابيل، بعد خمس جولات من عروض الأفلام الوثائقية المتتالية. دوّن في السجل الاسم السابق نفسه. واستقر ميغريه ثانية على درجة من السلم. ولكن، بما أن الفندق هو مكان لقاءات غرامية مشبوهة، فقد كان عليه كل عشر دقائق أن يفسح المجال ليسمح بمرور أزواج العشاق الذين كانوا ينظرون إليه باستغراب، ويراود النساء خصوصاً شعور بالقلق منه.

عندما تنتهي نقوده، عندما تفقد أعصابه القدرة على التحمل، هل سيقرر العودة إلى بيته؟ وفي مشرب للبيرة، حيث بقي الآخر وقتاً طويلاً وخلع معطفه الرمادي، لم يتردد ميغريه عن تناول المعطف والنظر إلى الجزء الداخلي من ياقته. المعطف مشترى من أولد انجلند، في شارع الإيطاليين. لابد أن ذلك المحل قد باع عشرات المعاطف المماثلة. ومع ذلك، كان هناك مؤشر. إنه

معطف من الشتاء الماضي. وهكذا فإن الرجل المجهول يقيم في باريس منذ سنة على الأقل. ولابد له من أن يكون قد استقر في مكان ما خلال السنة...

ينهمك ميغريه في تناول كؤوس من البونش لمقاومة الزكام. أما الآخر فلا يتخلى عن نقوده إلا بالقطارة. إنه يتناول قهوة، ولكن دون أن يضيف إليها بعض الليكور. وهو يتغذى بالكرواسان والبيض المسلوق.

الأخبار الآتية من المكتب هي نفسها على الدوام: لا جديد! لم يتعرف أحد على صورة البولوني. لم ترد أي شكوى عن اختفاء شخص.

وحول ما يتعلق بالميت، ليس هناك أي شيء أيضاً. كانت له عيادة مشهورة. وكان يكسب جيداً، ولم يكن يتدخل في السياسة، وكان يخرج بكثرة، وبما أنه يعالج الأمراض العصبية، فقد كان بين مرضاه الكثير من النساء.

* * *

كانت تجربة لم تسنح لميغريه الفرصة من قبل لأن يعيشها حتى النهاية: كم من الوقت يحتاج رجل جيد

التهذيب، ومحاصر، وجيد الملابس، لكي يفقد بريقه الخارجي حين يتوجب عليه التسكع على غير هدى في الشوارع؟

كم من الأيام! إنه يعرف ذلك الآن. فالذقن أولاً. لأن الرجل يبدو في أول الأمر محامياً أو طبيباً، أومهندساً أو صناعياً؛ يتصوره أحدنا خارجاً من بيت مريح. ولكن لحيته نمت طوال أربعة أيام إلى حد يمكن معه للناس أن يقولوا إذا ما نُشرت صورته مع خبر جريمة بولونيا: "يبدو واضحاً عن بعد فرسخ أن له وجه قاتل سفاح!".

وبسبب البرد وسوء النوم، احمرّت حواف جفونه، وقد أضفى الزكام لمسة من الحمى على وجنتيه. والحذاء الذي لم يعد لامعاً، بدأ يتشوه. وبدأ المعطف يذوي، وتتشكل في ساقي البنطال تكورات عند الركبتين.

بل إن التشرد بدأ يظهر في طريقة مشيه. فهو لم يعد يمشي بالطريقة نفسها: إنه يمشي الآن ملتصقاً بالجدران، ويخفض بصره حين ينظر إليه المارة... وهناك تفصيل آخر: إنه يشيح بوجهه كلما مرّ أمام مطعم يجلس فيه الزبائن إلى الموائد أمام أطباق وفيرة.

"إنها فرنكاتك العشرون الأخيرة يا صديقي! ما الذي ستفعله بعد ذلك؟" ـ يقول ميغريه ذلك وهو يُجري حساباته.

يناوب كل من لوقا وتورينس وجانفييه مكانه بين حين وآخر، ولكنه لا يتخلى لهم عن مكانه في المطاردة إلا في أضيق الحدود الممكنة. لقد كان مثل الإعصار في كواي دوس أورفيفير (مقر الشرطة الجنائية)، والتقى هناك بالرئيس.

ـ من الأفضل أن ترتاح يا ميغريه.

ولكن ميغريه نفورٌ ونزق، يجيب وكأنه محكوم بمشاعر متناقضة:

ـ واجبي هو الكشف عن القاتل، أليس كذلك؟

ـ بكل تأكيد...

ـ فلنواصل إذن! ـ يزفر وفي صوته شيء من الغيظ ـ إنني أتساءل أين سينام هذه الليلة.

العشرون فرنكاً الأخيرة! بل أقل من عشرين فرنكاً! فقد قال له تورينس عندما التقاه إن الرجل قد أكل ثلاث بيضات مسلوقة وشرب فنجاني قهوة مع

ليكور في بار على ناصية في شارع مونتمارتر.

ـ ثمانية فرنكات ونصف... بقي لديه أحد عشر فرنكاً ونصف.

إنه يشعر نحوه بالتقدير. فالآخر لا يكتفي بعدم التخفي، وإنما يمضي كذلك بمحاذاته، بل ويسير بجانبه أحياناً، ويكون عليه أن يكبح نفسه حتى لا يتوجه إليه بالحديث.

"هيا يا رجل! ألا تظن أن الوقت قد حان لتبدأ الغناء؟ في مكان ما ينتظرك بيت فيه تدفئة، وسرير، وخف بيتي، وشفرة حلاقة، أليس هذا صحيحاً؟ وكذلك عشاء جيد..."

ولكن لا! فقد راح الرجل يتسكع تحت أضواء سوق الهال، مثل من لا يعرفون إلى أين يذهبون، بين أكوام الملفوف والجزر، مفسحاً الطريق حين يسمع صفارة القطار، أو مرور شاحنات الخضار.

"لم يعد بإمكانك أن تدفع أجرة غرفة!"

في تلك الليلة سجلت خدمات الرصد الجوي ثماني درجات تحت الصفر. اشترى الرجل بعض السجق

الساخن الذي كانت تحضّره بائعة في الهواء الطلق. ستنبعث منه رائحة الثوم والدهن طوال الليل!

لقد حاول في إحدى اللحظات الدخول إلى بهو إحدى البنايات والاستلقاء في أحد الأركان، ولكن حارساً - لم يُتح الوقت لميغريه لإعطائه تعليمات - طرده من هناك. إنه يعرج الآن. الأرصفة. جسر دو آرت. عسى ألا يخطر له أن يلقي بنفسه إلى السين! لم تكن لدى ميغريه الحماسة ليقفز وراءه إلى المياه السوداء التي بدأت تجر معها قطعاً من الجليد.

مضى عبر رصيف القطر. كان بعض المتشردين يتذمرون. فالأماكن الجيدة تحت الجسور كانت مشغولة كلها.

في أحد الأزقة، بالقرب من ساحة موبير، ظهر عبر زجاج حانة غريبة بعض المسنين يغفون ورؤوسهم مستندة إلى الطاولات، بالإمكان عمل ذلك مقابل عشرين سنتيماً، يضاف إلى ذلك كأس من النبيذ الأحمر! تطلع الرجل إلى ميغريه وسط الظلام. رسم إشارة جبرية ودفع الباب. وفي الوقت الذي استغرقه انفتاح الباب وانغلاقه صفعت وجه ميغريه هبة رائحة مقززة. فضل البقاء في

الشارع. استدعى شرطياً وطلب منه أن يتولى الحراسة على الرصيف، ومضى ليتصل هاتفياً بلوقا الذي كان مناوباً تلك الليلة.

ـ منذ ساعة ونحن نبحث عنك أيها الرئيس. لقد توصلنا إلى تحديد هويته! الفضل في ذلك يعود إلى إحدى البوابات. اسمه ستيفان ستريفسكي، مهندس، أربع وثلاثون سنة، مولود في فرصوفيا، يقيم في فرنسا منذ حوالى ثلاث سنوات. يعمل مع متخصص في الديكور في ضاحية فابور سانت ـ أونوريه. متزوج من هنغارية، وهي امرأة شديدة الجمال تدعى دورا. يعيش في باسيه، شارع البومب، في شقة يدفع اثني عشر فرنكاً إيجاراً لها. لاعلاقة له بالسياسة... البوابة لم تر الضحية مطلقاً من قبل. لقد خرج ستيفان من بيته يوم الاثنين في وقت أبكر من المعتاد. وقد فوجئت هي حين رأت أنه لم يرجع، ولكن القلق فارقها عندما رأت أن...

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الثالثة والنصف. إنني وحدي هنا. لقد طلبت أن يأتوني بزجاجة بيرة، ولكنها باردة جداً...

ـ اسمعني جيداً يا لوقا. ستذهب... أجل! أعرف ذلك! لقد أصبح الوقت متأخراً بالنسبة لتلك التي تصدر في الصباح، ولكن التي تصدر في المساء... هل فهمت كل شيء؟

* * *

في ذلك الصباح كانت تفوح من ملابس الرجل رائحة بؤس صماء. وكانت عيناه غائرتين أكثر من السابق. والنظرة التي وجهها إلى ميغريه، في الصباح الشاحب، كانت تتضمن أشد أشكال العتاب إثارة للشجون.

أولم يقتادوه شيئاً فشيئاً، ولكن بسرعة لا تخلو من كونها دوارية، إلى أدنى درجات الحضيض؟ رفع ياقة معطفه. لم يغادر الحي. وبطعم المرارة الذي في فمه دخل إلى حانة كانت قد فتحت أبوابها للتو، وشرب أربع كؤوس، كأساً بعد أخرى، كما لو أنه يريد انتزاع أثر الطعم المرعب الذي خلّفته تلك الليلة في حنجرته وصدره.

وماذا بعد! لم يبق لديه الآن أي شيء! لم يعد

بإمكانه إلا أن يهيم على وجهه في الشوارع التي جعلها الجليد زلقة. لابد أنه يشعر بوخزات. إنه يعرج بساقه اليسرى. وبين حين وآخر يتوقف ويتطلع فيما حوله بيأس.

وبما أنه لم يعد يدخل إلى أي مقهى فقد أصبح من المستحيل على ميغريه أن يتصل بالهاتف ليطلب أحداً يحل محله في الملاحقة. الأرصفة مرة أخرى! وتلك الحركة الآلية التي يقلّب بها الرجل الكتب المعروضة للبيع بأسعار مخفضة، متصفحاً صفحاتها، وممعناً النظر حيناً في لوحة غرافيك أو صورة مطبوعة! هناك ريح جليدية تكنس السين. والماء يقرقع في مقدمات المراكب المتحركة لأن قطع الجليد تتصادم بعضها ببعض وكأنها كرات خرز.

من بعيد رأى ميغريه مبنى الشرطة الجنائية، ونافذة مكتبه. لابد أن أخت زوجته قد عادت إلى اورليان. لو أن لوقا...

لم يكن يعرف حتى ذلك الحين أن هذا التحقيق الفظيع سيتحول إلى عملية كلاسيكية، وأن أجيالاً من المفوضين سيرددون تفاصيله على مسامع المفتشين

المستجدين. لقد بدا الأمر نوعاً من الحماقة، ولكن على الرغم من كل شيء، كان هناك تفصيل مضحك يثير في نفسه الشفقة: إنها حَبّةٌ في جبهة الرجل، وهي حبة إذا أمعن المرء النظر إليها يتأكد له أنها دمل، لونها آخذ في التحول من الأحمر إلى البنفسجي.

لو أن لوقا...

في الساعة الثانية عشرة، توجه الرجل الذي يعرف باريس جيداً إلى المكان الذي يوزعون فيه الحساء الشعبي، في نهاية شارع سان جيرمان. توجه إليه شخص مسن بالكلام، ولكنه تظاهر بعدم الفهم. عندئذ تكلم إليه شخص آخر في وجهه آثار الجدري، باللغة الروسية.

انتقل ميغريه إلى الرصيف المقابل، تردد، ثم وجد نفسه مضطراً إلى أكل بعض الساندويتشات في حانة، وأدار ظهره قليلاً حتى لا يراه الآخر وهو يأكل عبر الزجاج.

كان أولئك المتشردون التعساء يتقدمون ببطء، فيدخلون في جماعات كل واحدة منها مؤلفة من خمسة أو ستة أشخاص إلى حيث يقدمون لهم قصعة

حساء ساخن. كان الصف طويلاً. وبين حين وآخر كان الذين في المؤخرة يدفعون من هم أمامهم، فتُسمع من البعض عبارات الاحتجاج.

الساعة الواحدة. ظهر صبي بائع صحف من أقصى الشارع. كان يركض مندفعاً بجسمه وهو ينادي صارخاً.

- L'Intran... L'Intran...

لم يكن ذلك الصبي أيضاً يرغب في إضاعة الوقت. كان يعرف من بعيد أن هناك عابرين سيشترون الجريدة. فلم يولِ أي اهتمام لصف المتسولين. وتابع:

- L'Intran...

رفع الرجل يده بمذلة وقال لبائع الصحف:

- آيه، آيه!

فتطلع إليه الآخرون. هذا يعني أنه مازالت لديه بعض السنتيمات ليشتري صحيفة؟

ميغريه نادى البائع أيضاً، وفتح الجريدة، وشعر بالراحة حين وجد ما يبحث عنه في الصفحة الأولى. إنها صورة امرأة شابة، جميلة ومبتسمة.

«اختفاء مقلق»

"وصلتنا أخبار عن اختفاء شابة بولندية منذ أربعة أيام، إنها مدام دورا ستريفسكي التي لم تعد إلى منزلها في باسي، شارع البومب، الرقم ١٧.

"يضاف إلى ذلك واقعة ذات مغزى متمثلة في أن زوج المختفية المدعو ستيبان ستريفسكي، قد اختفى هو أيضاً من منزله في اليوم السابق، أي يوم الاثنين، والبوابة التي أعلمت الشرطة بذلك، صرحت..."

لم يكن قد بقي للرجل سوى خمسة أو ستة أمتار في الصف الذي يتجاذبه، ليحصل على حقه في قصعة الحساء الساخن. في هذه اللحظة بالذات خرج من الصف، واجتاز الشارع، حيث كادت أن تصدمه حافلة، ووصل إلى الرصيف الآخر، ليجد نفسه في مواجهة ميغريه مباشرة. واكتفى الرجل بالقول: - إنني رهن إشارتك! سأرافقك إلى حيث تشاء. وسأرد على كل أسئلتك...

* * *

كان الجميع في ممر مقر الشرطة الجنائية: لوقا، جانفييه، تورينس، وآخرون لم يشاركوا في القضية ولكنهم كانوا يتابعون تطوراتها. ولدى مرور ميغريه، أومأ له لوقا إيماءة أراد أن يقول فيها: "لقد انتهت القضية!".

ينفتح باب ويُغلق من جديد. هناك على الطاولة زجاجة بيرة وساندويتشات.

ـ أولاً وقبل كل شيء، عليك أن تأكل قليلاً.

يشعر الرجل بالضيق. لا يتمكن من البلع. وأخيراً يبدأ بالكلام.

ـ بما أنها قد ذهبتْ وأصبحتْ بمنجى...

بدا لميغريه أنه يشعر بالحاجة إلى تسعير نار المدفأة.

ـ ... عندما قرأت في الصحف خبر الجريمة، كان قد مضى علي وقت وأنا أرتاب في أن دورا تخونني مع ذلك الرجل. وكنت أعرف كذلك أنه لم يكن عشيقها الوحيد. فقد كنت أعرف دورا جيداً، وأعرف طبعها المندفع، هل تفهمني؟ لاشك في أنه حاول التخلص منها، وكنتُ أعرف أن دورا لا تتردد عن الإقدام على... لقد كانت تحمل في حقيبتها على الدوام مسدساً مزيناً

بالصدف. وعندما نشرت الصحف خبر اعتقال القاتل وإعادة تمثيل الجريمة، أردت أن أرى...

تمنى ميغريه لو أنه يستطيع أن يقول له مثلما يقول رجال الشرطة الإنكليز: "إنني أحذرك من أن كل ما تقوله يمكن أن يُستخدم ضدك".

لم يكن قد خلع معطفه. وكان ما يزال يعتمر قبعته.

ـ ...الآن، وبعد أن أصبحتْ هي في مكان آمن... لأنني أعتقد... ـ ونظر في أثناء ذلك فيما حوله مغموماً. ومرّ خاطر مريب في ذهنه ـ لابد أنها أدركتْ ما حدث حين رأتْ أنني لم أرجع. لقد كنت أعرف أن الأمر سينتهي على هذه الصورة، وأن بورمز لم يكن بالرجل المناسب لها، وأن دورا لن تقبل مطلقاً أن تكون ألعوبة يلهو بها لبعض الوقت، وأنها بالتالي ستعود إليّ. لقد خرجتْ مساء يوم الأحد وحدها مثلما اعتادت أن تفعل في الفترة الأخيرة. ولابد أنها قتلته عندما...

نف ميغريه أنفه. بقي ينف طويلاً. وكان ينفذ من النافذة شعاع شمس، شعاع شتائي حاد من تلك التي

ترافق موجات البرد الكبيرة. وكانت الحَبّة، الدمل، تلمع في جبهة ذلك الشخص الذي لا يمكن دعوته إلا بـ "الرجل".

ـ زوجتك قتلته، أجل، بعد أن أدركتْ أنه يسخر منها. ثم أدركت أنت بدورك أنها قتلته. عندئذ أردت أن ... ـ واقترب من البولوني فجأة ، ودمدم وكأنه يحدث زميلاً قديماً: ـ أعذرني يا صديقي. لقد كلفوني باكتشاف الحقيقة، أليس كذلك؟ وكان واجبي أن... ـ ثم فتح الباب ـ فلتدخل مدام دورا ستريفسكي. تابع التحقيق أنت يا لوقا، فأنا...

ولم يعد أحد يراه في قسم الشرطة الجنائية طوال اليومين التاليين. فاتصل به الرئيس إلى بيته:

ـ حسن ياميغريه. يجب أن تعرف بأنها اعترفت بكل شيء وأنها... بالمناسبة، كيف حال زكامك؟ لقد أخبروني...

ـ الأمر لا يستحق الذكر. خلال أربع وعشرين ساعة سأكون... وماذا عنه؟

ـ ما الذي تقوله؟ من تعني؟

ـ هوا

ـ آه، فهمت! لقد وكّل لها أفضل محامٍ في باريس. وهو يأمل... أنت تعرف، هذا النوع من الجرائم العاطفية...

عاد ميغريه إلى الاستلقاء وغاب عن الوعي بفعل كؤوس البونش وأقراص الأسبرين.

فيما بعد، وكلما أراد أحدهم أن يحدثه عن ذلك التحقيق، كان ميغريه يزمجر: "أي تحقيق؟" لكي يخيب أمل سائليه.

وكان الرجل يأتي إليه مرة أو مرتين كل أسبوع ويطلعه على آمال المحامي.

لم يكن الحكم بالبراءة الكاملة: بل سنة من الحرية المشروطة.

وقد كان ذلك الرجل هو الذي علّم ميغريه لعب الشطرنج.

Nieul-sur-Mer, 1939

ملحق

المفوض ميغريه
ومبدعه جورج سيمنون

جورج سيمنون يتحدث

عن المفوض ميغريه

عمر ميغريه ما بين ٤٥ و٥٠ سنة. ولد في قلعة في وسط فرنسا، حيث كان أبوه يتولى وظيفة المشرف الإداري. إنه إذن من أصل فلاحي، مربوع ومتين البنية، ولكنه يملك شيئاً من التربية؛ وهذا في فرنسا شيء يشبه قطع نصف الطريق نحو البرجوازية. وكان في صباه مساعداً للقسيس في قريته. في شبابه أراد أن يصبح طبيباً. ليس حباً بالطب، وإنما لأنه كان يحلم، دون أن يقول ذلك لأحد، بمهنة من نوع لا وجود له: مهنة "مُرَقِّع الأقدار". فقد كان يرى أن هناك أشخاصاً كثيرين لا يصلون إلى نهاية مصيرهم الحقيقي لأنهم لا يفهمون أنفسهم. فكان يتمنى أن يفهم جميع الناس ويساعدهم على تكوين أنفسهم. وكان يرى في سنوات مراهقته أن مهنة الطب هي الأكثر قرباً من هذا الحلم.

موت أبيه حال دون استكماله دراسته. وعندئذ اكتشف أن الشرطة الجنائية تتيح له الاهتمام بالناس بطريقة مشابهة إلى حد بعيد لرغباته الشبابية. ولهذا انضم للعمل سكرتيراً في إحدى مفوضيات الشرطة في باريس. وتدرج في كل مستويات الخدمة الشرطية (مثلما كان يحدث آنذاك، حين كانت المعارضة أقل أهمية على الصعيد العملي): فرقة الشوارع، ثم فرقة محطات السكك الحديدية، فحراسة المخازن الكبرى، فشعبة المخدرات، إلى آخره.

ثم انتقل أخيراً إلى الفرقة المتخصصة بجرائم القتل وتحول إلى ميغريه.

حياته الخاصة هادئة جداً. لديه زوجة عذبة، ممتلئة، رقيقة وبسيطة، تناديه باحترام باسم ميغريه (وهكذا انتهى الأمر بالجميع إلى نسيان اسمه المضحك، جوليس). وتحتفظ زوجته ببيتها نظيفاً تماماً، وتعد له أصنافاً من الطبخ اللذيذ المغذي، وتعتني بجراحه، ولا تفقد الصبر حين يقضي عدة أيام خارج البيت، وتتحمل بتسامح تقلبات مزاجه. ترعبها التبدلات، وهي تعيش منذ حوالى عشرين سنة في الشقة نفسها، في حي ليس

بالغني وليس بالفقير، وإنما هو حي شغيلة متواضعين.

ميغريه رجل يميل إلى السمنة، هادئ، يدخن الغليون بأخذ أنفاس قصيرة ومستمتعة، يروقه الأكل الجيد، وكذلك الشراب: فهو يشرب البيرة أحياناً، وفي أحيان أخرى يتناول رشفات قليلة من خمور جيدة. يحب التسكع في الشوارع والجلوس في مقاهي الأرصفة. أي قضية إجرامية لا تشكل في نظره قضية علمية، أو مشكلة مجردة. وإنما هي قضية إنسانية.

يحب شم الأثر الذي يخلفه أحد الرجال وكأنه كلب صيد يشم طريدته. يريد أن **يفهم**. إنه يدخل في جلد شخصياته الذين يجهل تماماً كل شيء عنهم إلى ما قبل قليل من رؤيتهم للمرة الأولى، وعندما تكون ثمة جريمة، يحتاج إلى تقصي أدق التفاصيل عن تلك الشخصيات. وهو يولي أهمية كبيرة للوسط الذي يعيشون فيه. ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأن أي حركة ما كانت ستكون هي نفسها في وسط مختلف، وأن طبيعة الشخص كانت ستتطور بطريقة مختلفة في أي حي آخر.

إنه بطيء، ثقيل، صبور. ينتظر **الومضة**. تلك

الومضة التي يشير إليها زملاؤه بمحبة واحترام ساخرين، وهي اللحظة التي يتوصل فيها ميغريه المشبع بالأجواء وبالشخصيات إلى التفكير والإحساس أخيراً مثل الشخصيات التي لاحقها خطوة خطوة خلال ساعات وأيام وأسابيع.

ليس هناك أي أبهة في سلوكه. وهو يولي اهتماماً ضئيلاً للأساليب العلمية، ولكنه لا يرفضها بالكامل. وكثيراً ما يلتصق بعناد بأحد المشبوهين ويفرض عليه حضوره دون توقف، ذلك أنه يعرف أنه سينتهي بهذه الطريقة إلى "تلغيم" أعصاب خصمه، وإلى إثارة بلبلته أو رعونته بصورة كاشفة.

وفي أشد اللحظات درامية، يكتنفه شيء أقرب ما يكون إلى نفحة المزاح، وهو ما يتولد في معظم الأحيان من البساطة المطلقة وغير الرسمية التي ينظر بها على الدوام إلى الأشخاص والأشياء.

إنه يستفيد من خدمات مفتشي فرقته، ولكنه يفضل دوماً أن يذهب بنفسه شخصياً إلى المكان المطلوب، ويتتبع بنفسه الآثار، ويقوم بأعمال المراقبة والمساعي التي يعتبرها كثيرون غير لائقة بمنصبه. فهو

يريد أن يشم الأشخاص والأماكن بنفسه، والتحرك في كل مكان. ومع أنه يشعر في بعض الأحيان بالاحباط، إلا أنه لا يفقد الصبر أبداً، وفي أحيان كثيرة يبدو مخموراً أو نائماً بينما يكون في الواقع في أشد حالاته صحواً ويقظة.

يكره الشر المتعمد، ويكره الرجال الذين يقترفون الشر ببرود أعصاب، ويبدي عداوة شرسة للنفاق. ولكنه متسامح جداً بالمقابل حيال الأخطاء التي هي ثمرة ضعف الطبيعة الإنسانية. فهو لا يشعر بالشفقة وحسب تجاه أي شاب أو فتاة ممن يتورطون في طريق الشر، بل بالسخط على المؤسسة الاجتماعية التي هي منشأ ذلك التوجه إلى الشر.

وقد ينسى في بعض الأحيان أنه أداة في يد القانون ويساعد بعض المذنبين على الإفلات من عقاب يعتبره مبالغاً فيه.

وعندما يتاح له المجال، يحاول أن يرقع الأقدار، مثلما كان يحلم في شبابه. وكثيراً ما يسبب له ذلك خلافات مع رؤسائه وخصوصاً مع القضاة الذين يحاكمون المتهمين على ضوء نصوص القانون وحسب.

ولهذا فإن المتهمين ينظرون إليه في أحيان كثيرة نظرتهم إلى كاهن الاعتراف، ويشعرون بمحبة حقيقية تجاهه... ويطلب منه بعض المحكومين بالإعدام أن يحضر تنفيذ الحكم فيهم لكي يساعدهم على الموت بكرامة.

(وصف موجز لشخصية ميغريه أملاه
جورج سيمنون حوالى عام ١٩٥٣،
ووجهه إلى منتج سينمائي)

ميغريه يتحدث عن جورج سيمنون

(الشهير بجورج سيم)

من مذكرات ميغريه (١٩٥٠)

[في أحد الأيام، قام رئيس ميغريه بتعريفه على صحفي شاب يدعى جورج سيم]

ـ السيد سيم يحتاج إلى التعرف على موظف في الشرطة الجنائية من أجل رواياته. وحسب ما طرحه علي للتو، فإنه يرى أن جزءاً لا بأس به من المآسي الإنسانية يجري حله في هذا المقر. وقد أوضح لي كذلك أن ما يريد معرفته ليس آلية عمل الشرطة، لأنه أتيحت له الفرصة من قبل للإطلاع المفصل على ذلك في مكان آخر، وإنما هو يريد التعرف على الأجواء التي تدور فيها العمليات الشرطية.

كنت أتطلع بين حين وآخر فقط، وبصورة مواربة، إلى الشاب الذي يجب أن يكون في الرابعة والعشرين،

وقد كان نحيلاً، له شعر طويل مثل شعر رئيسي تقريباً، وأقل ما يمكن أن أقوله عنه هو أنه لم يكن يرتاب بأي شيء - ولم يكن بكل تأكيد يرتاب بنفسه بالذات.

[وهكذا، لم يجد ميغريه بدًا من مرافقة ذاك المدعو سيم، الذي سيرافقه لبعض الوقت إلى كل مكان يذهب إليه، ويأخذه إلى مكتبه. وكبداية، يقترح عليه زيارة الحبس الاحتياطي]

- لقد زرنا السجن ليلة أمس. لم يكن يسجل ملاحظات. لم يكن يحمل دفتراً ولا قلماً. بقي عدة دقائق في قاعة الانتظار المزججة، حيث تُعلق في إطارات سوداء صور رجال الشرطة الذين استشهدوا أثناء الخدمة. (...)

كان ضيفي ينظر إلى غليوناتي، وإلى منافضي، وإلى ساعة المرمر الأسود الموضوعة فوق المدفأة، وحوض غسل الأيدي الصغير الموضوع خلف الباب، والمنشفة لتي تنبعث منها على الدوام رائحة كلب مبلل.

لم يوجه إلي أي سؤال تقني. ولم تكن الملفات تثير اهتمامه على الإطلاق.

ـ عبر هذا السلم وصلنا إلى المختبر.

وهناك أيضاً راح يتأمل السقف المزجج في جزء منه، والجدران، والأرضية، ودمية المانيكان التي تستخدم في بعض عمليات تمثيل الجرائم، ولكنه لم يبدِ اهتماماً بالمختبر بحد ذاته، بأجهزته المعقدة، ولا بالعمل الذي يجري فيه.

[وفجأة يتوجه جورج سيم إلى ميغريه ـ الذي يقرأ قليلًا جدًا حسب اعترافه هو نفسه ـ ويسأله إذا ما كان قد قرأ لشخص يدعى هانز غروس، وهو قاض نمساوي]

وكان ضيفي بالمقابل قد قرأ مجلدي أعماله السميكين. كان قد قرأ كل أعماله. وأعداداً كبيرة من الكتب التي كنت أجهل وجودها وكان هو يذكر عناوينها دون كبير اهتمام(...)

بدأ يُفقدني صبري. لقد بدا لي أنه يشغلني بمرافقته لمجرد أن يتفحص الجدران، والسقوف، والأرضيات، ولكي ينظر إلينا جميعنا وكأنه يقوم بجرد الموجودات.

[وأخيرًا، في مكتب ميغريه، يكتشف سيم تشابهًا

بينه وبين المفوض]

- أرى أنك ممن يدخنون الغليون أيضاً. إنني أحب مدخني الغليون.

كان هناك كالعادة حوالى اثني عشر غليوناً مبعثرة فوق طاولة المكتب، وقد تفحصها تفحص العارف.

- ما هي القضية التي بين يديك الآن؟

[ويوضح له ميغريه بأنه قد توصل للمرة الأولى إلى اكتشاف تقنية جديدة يستخدمها المجرمون]

فيجيبه سيم:

- لا، ليست جديدة، فقد استُخدمت منذ ثمان سنوات في نيويورك، أمام متجر في الجادة الثامنة.

وبالرغم من أنني كنت أراه راضياً عن نفسه، إلا أنه لم يكن بإمكاني القول إنه يتبجح. كان يدخن غليونه بجدية، وكأنه يريد أن يبدو أكبر بعشر سنوات مما هو عليه، وكأنه يريد أن يضع نفسه في المستوى نفسه مع الرجل الناضج الذي كنته أنا آنذاك.

- أقول لك أيها السيد المفوض إن المحترفين لا يثيرون اهتمامي. سيكولوجيتهم لا تطرح أية مشاكل.

إنهم أناس ينجزون مهماتهم وكفى.

- ومن هم الذين يثيرون اهتمامك إذن؟

- الآخرون. الذين هم مثلك ومثلي، ممن يصل بهم الأمر إلى القتل يوماً دون أن يكونوا مستعدين لذلك.

- هنالك حالات قليلة من هذا النوع.

- أعرف ذلك.

- باستثناء الجرائم العاطفية...

- الجرائم العاطفية ليست مهمة أيضاً.

هذا هو تقريباً كل ما علق في ذاكرتي من ذلك اللقاء.

*[بعد وقت قصير من ذلك، يجد ميغريه على طاولة عمله نسخة من كتاب **فتاة اللآلئ** من تأليف جورج سيم. ولكن ميغريه الذي يقرأ قليلاً، "ولا يقرأ الروايات الشعبية مطلقاً"، يترك الكتاب ولا يقرأه. ولكنه يعلم من خلال زملائه أن بطل هذه الرواية هو شخص يدعى ميغريه... بعد بضعة أيام من ذلك يستدعيه رئيسه غويشار إلى مكتبه. ويكون هناك جورج سيم]*

كان الصديق سيم هناك دون أن يبدو عليه أدنى قدر من الضيق. بل كان يبدو وكأنه منشرح الصدر، وكان يضع في فمه أكبر غليون رأيته في حياتي. (...)

قال غويشار:

ـ حسن، صديقنا سيم ينوي كتابة سلسلة روايات تبدو فيها الشرطة مثلما هي في الواقع.

كشرت تكشيرة لم تفلت من انتباه الرئيس. فصحح قائلاً:

ـ مثلما هي في الواقع تقريباً. هل تفهمني؟ وكتابه ليس إلا نموذجاً لما ينوي عمله.

فقلت معترضاً:

ـ لقد استخدم اسمي.

ظننت أن الشاب سيضطرب، وأنه سيطلب العذر. ولكنه لم يفعل ذلك على الإطلاق.

ـ آمل ألا يكون ذلك قد ضايقك أيها السيد المفوض. إنه أمر أقوى مني. فعندما تصورت شخصاً باسم محدد، لم يعد بإمكاني استبداله. لقد حاولت دون طائل أن أولف كل الحروف الممكنة لكي استبدل

اسمك، ميغريه. ولكنني تخليت عن المحاولة في النهاية. لأنني لو فعلت ذلك لما عادت شخصيتي التي أريدها.

لقد قال "شخصيتي" بهدوء تام، والأسوأ من ذلك أنني لم أنبس بحرف، ربما بسبب وجود شافييه غوتشار والنظرة الخبيثة التي كان يصوبها إلي. (...)

لقد كنت قد قلت منذ البدء: سيم لا يشك في أي شيء. وأظن أن ذلك هو مصدر قوته. (...)

ـ من الصعب علي بناء شخصية إذا كنت لا أعرف كيف تتصرف في كل لحظة من اليوم. فلا يمكنني على سبيل المثال أن أتحدث عن المليونيرين إذا أنا لم أرهم بالروب البيتي.

هذا كله حدث منذ زمن بعيد، وأنا أتساءل الآن عن السبب السحري الذي جعلنا نسمع ذلك كله دون أن ننفجر مقهقهين.

ـ هذا يعني أنك تريد...

ـ ... التعرف عليك بصورة أفضل. أن أرى كيف تعيش وكيف تعمل.

(...) في الصباح رأيت الشاب سيم يدخل إلى

مكتبي مجدداً، وكأنه قد تحول إلى واحد من مساعدي، ويقول لي بلطف: "لا تقلق..."، ويمضي ليجلس في أحد الأركان.

بقي جالساً هناك دون أن يدون أية ملاحظات. ولم يكن يوجه أسئلة. بل كان يميل إلى تأكيد ما يسمعه. وقد أوضح لي فيما بعد ـ وهذا لا يعني أنني اقتنعت بما قاله ـ أن رد فعل الإنسان حيال التأكيدات هو أكثر كشفاً من ردوده على سؤال محدد.

[في أحد الأيام يدعوه ميغريه للذهاب إلى بيته ويعرفه على زوجته. ولكن زيارات سيم إلى المكتب ما لبث أن توقفت فجأة]

صرت أستغرب عدم رؤيته في ركنه المعتاد، ينهض عندما أنهض، يتبعني عندما أنصرف، يمشي في أثري من مكتب إلى آخر.

[في صباح أحد الأيام تلقى ميغريه دعوة من سيم لحضور حفلة في مركبه أوستروغوث]

لم أذهب. وعلمت من شرطة الحي أن عصبة من الممسوسين قد أحدثت صخباً كبيراً طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على سطح مركب مربوط في السين، ومزين

بالأعلام، في وسط باريس.

وفي أحد الأيام، بينما كنت أجتاز جسر نيف، رأيت المركب المعني، وعند قاعدة صاريه رأيت شخصاً يكتب على آلة كاتبة، وكان يضع على رأسه قبعة قبطان سفينة.

[بعد سنة من ذلك تلقى ميغريه دعوة أخرى من جورج سيم، وكان قد تحول آنذاك إلى جورج سيمنون، وكانت في هذه المرة دعوة إلى حفلة رقص بمناسبة تقديم رواياته البوليسية]

لم أهتم كثيراً بالدعوة. ولم أذهب إلى حفلة الرقص، وعلمت في اليوم التالي أن قائد الشرطة قد ذهب إليها.

عرفت ذلك من الصحف. وهي الصحف نفسها التي أطلعتني في صفحاتها الأولى على أن المفتش ميغريه قد برز كاسم لامع في الأدب البوليسي.

*[تخرج الأجزاء الأولى من الأعمال التي تعارف الناس على تسميتها بـ "**بدايات ميغريه**" وهي: اللص بيتر، والمتوفي المحسن، ومشنوق الكنيسة]*

ورأيت سيمنون يدخل مكتبي من جديد في اليوم التالي، وكان يبدو راضياً عن نفسه، بالرغم من وجود ظل من القلق في نظرته. (...)

لست أذكر كل ما قاله، ولكنني مازلت أتذكر عبارته الجوهرية التي كررها أمامي عدة مرات منذ ذلك الحين، وكان يقولها بنبرة رضى تقترب من السادية:

ـ الحقيقة لا تبدو حقيقية مطلقاً. لست أعني بذلك الأدب والرسم فقط. ولست أذكر لك كذلك مسألة الأعمدة المتتالية التي تبدو لنا خطوطها عمودية بصرامة، ولكنها تسبب لنا هذا الانطباع لأنها مائلة ميلاناً خفيفاً. فلو أنها كانت مستقيمة لرأتها عيوننا ثخينة ـ في ذلك الوقت كان ما يزال يحب إظهار سعة إطلاعه ـ. لقد قال لي: أروِ أي قصة لأحدهم. وإذا لم تشذبها قليلاً سيجدها بعيدة الاحتمال ومفتعلة. ولكن أعد ترتيبها، وستبدو أكثر حقيقية من الحقيقة ـ كان يطلق هذه الكلمات كما لو أنه قد توصل إلى اكتشاف عظيم. ثم قال : ـ المسألة كلها تكمن في جعل الأمر يبدو أكثر حقيقية من الحقيقة. حسن، وأنا جعلت حضرتك أكثر حقيقية من الحقيقة.

صمتُ تماماً. فالمفوض المسكين الذي هو أنا، المفوض "الأقل حقيقية من الحقيقة"، لم يجد جواباً يرد به عليه.

[المسألة هي أن ميغريه أخذ يتحول مع مرور السنوات، ويتطور، ليس في طريقته في الحياة وحسب، وإنما كذلك في طريقة لبسه، متلائمًا مع الصورة التي راح يرسمها له جورج سيمنون]

عمر سيمنون الآن في الواقع قريب من السن التي كنتُ فيها عندما التقينا أول مرة. لقد كان يميل في ذلك الحين إلى اعتباري رجلاً ناضجاً، بل وكان ينظر إلي في أعماقه على أنني رجل عجوز.

لم أسأله مطلقاً عن رأيه الآن في ذلك، ولكنني لم أستطع منع نفسي في أحد الأيام من توجيه الملاحظة التالية إليه:

ـ هل تعرف أنك رحت تتبدل مع مرور السنوات، وأنك بدأت تمشي، وتدخن الغليون، بل وتتكلم كذلك مثل ميغريه الذي صنعته أنت؟

وكان ذلك الأمر، فضلاً عن صحته، يشكل

بالنسبة إلي - وأظنكم تفهمونني - انتقاماً لذيذاً

لقد بدأ يبدو في عمره المتأخر وكأنه "يعتقد نفسه أنه أنا"!

القصة نفسها مختلفة

هذه قصة بحث ولقاءات أكثر من غريبة.

فالكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز يعيش مؤرقاً ومغموماً لسنوات طويلة بعد قراءة عرضية لإحدى القصص القصيرة. ولكنه لايستطيع أن يتذكر عنوان القصة ولا اسم كاتبها. وبفضل مساعدة الأصدقاء وذكرياته الشخصية، يبدأ بتحديد اسم المؤلف أولاً: **جورج سيمنون**، ثم اسم بطل القصة: **المفوض ميغريه**. وبعد ذلك عنوانها: **الرجل في الشارع**. وأخيراً، بعد أربع وأربعين سنة، في ربيع ١٩٩٣، يعثر على القصة نفسها. وعندئذ يكتب هذه القصة عن القصة الأخرى: القصة نفسها مختلفة.